الإخوان المسلمون والقضية الفلسطينية

د. حمادة محمود إسماعيل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

بكلية الآداب جامعة بنها

الإخوان المسلمون والقضية الفلسطينية

فى سنة ١٩٢٨ وفى مدينة الإسماعيلية الهادئة القابعة على الضفة الغربية لقناة السويس كان ميلاد " جماعة الإخوان المسلمين " على يد حسن البنا خريج دار العلوم والذى عين مدرساً بنفس المدينة ، ولم يكن الميلاد بمحض الصدفة بل سبقه تجهيزات ودراسة لطبيعة المكان وظروفه والشخصيات التى تعامل معها حسن البنا وهو ما ساعده كثيراً على أن يخرج بالجماعة إلى النور[١].

وفى ذات الوقت لا يمكن تفسير ظهور تلك الجماعة على الساحة الا بأنه نتاج ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية اجتاحت المجتمع المصرى وهو ما سهل عملية ظهورها ثم تقبلها فيما بعد !

فعلى المستوى السياسى شهدت مصر بعيد ثورة سنة ١٩١٩ أحوالاً سياسية غير مستقرة ساعد عليها وجود الاحتلال البريطانى وكثرة الصراعات السياسية بين القوى القديمة (الحزب الوطنى) والقوى الجديدة التى صنعتها الثورة (حزب الوفد) والقوى التى خرجت عليه (حزب الأحرار الدستوريين) وكذا القوى الجديدة التى صنعتها السراي ضد الوفد (حزب الإتحاد) وما ترتب على تلك الصراعات من تفتت القوى السياسية العاملة فى سبيل القضية الوطنية، هذا فضلاً عن الانقلابات الدستورية التى شهدتها تلك المرحلة والتغييرات الوزارية الكثيرة ، التى بالطبع لم تكن فى صالح الاستقرار السياسى ولا القضية الوطنية التى تاهت وسط كل هذا القلق السياسى .

أما عن الحالة الاقتصادية فلم تكن أحسن حالاً فلم يطرأ تغير كبير على حال الفلاح ولا العامل ، بل ازدادت الأمور سوءاً مع اقتراب الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العالم سنة ١٩٢٩ واصطلت مصر بنارها ، صحيح أن هذه المرحلة شهدت ميلاد بنك مصر سنة ١٩٢٠ إلا أن دوره المؤثر فى التطور الاقتصادى كان فى حاجة إلى بعض الوقت .

أما عن الأحوال الاجتماعية فلم يطرأ تغيير كبير على حالة التعليم بكافة مستوياته خاصة وأن هذه المرحلة شهدت تحول الجامعة المصرية التى نشأت سنة ١٩٠٨ إلى جامعة حكومية ، غير أن دورها المؤثر والفعال كان فى حاجة إلى

بعض الوقت ، يضاف إلى ما سبق ما شهده التعليم من وجود مدارس أجنبية تتبع الجاليات التى تعيش فى مصر وهو ما كان يمثل اتجاهاً موازياً ومضراً فى ذلك القطاع ، خاصة إذا وضعنا فى الحسبان أن تواجد تلك المدارس ارتهن بالنفوذ الأجنبى كذلك لم يطرأ تغيير كبير على حال المرأة على كافة الأصعدة، يضاف إلى ما سبق انتشار بيوت الدعارة وخاصة فى المدن ، بسبب التواجد الأجنبى وكذا الاحتلال هو ما أضاف قلقاً اجتماعيا لم تكن الحكومات الوطنية قادرة على درئه[٢].

خلاصة القول أن كل التطورات ساعدت كثيراً على ظهور جماعة الإخوان المسلمين ومكنت حسن البنا من السير بجماعته طوال عشر سنوات (١٩٢٨ – ١٩٣٨) دون أن يشعر به أحد إلا الذين حوله إلى أن ظهرت كجماعة سياسية فى أعقاب مؤتمرها الخامس سنة ١٩٣٨[٣].

غير أن اللافت للنظر أن العام ١٩٢٧ [٤] شهد فى نهايته ميلاد جمعية الشبان المسلمين والتى جاءت رداً على تكوين جمعية الشبان المسيحيين ، غير أن الأولى رغم قوتها فى التكوين على الإخوان المسلمين إلا أن الاتجاه الدينى والاجتماعى الذى سارت عليه دون الانخراط فى العمل السياسى إلا نادراً مكنها من الاستمرار فى دورها الذى ارتضته وأبعدها عن الاصطدام بالسياسة وهو ما ضمن لها البقاء حتى الآن !!

كما أشرنا بدأت الجماعة تسفر عن هويتها السياسية منذ سنة ١٩٣٨ ، وبدأ مرشدها حسن البنا والذين معه يطرحون أيديولوجية الجماعة من خلال الصحف التى أصدرتها الجماعة والاجتماعات التى كانت تعقدها وكذا أحاديث المرشد ، وشخصيته الآثرة ، وهى كلها عوامل ساعدت على انتشار الجماعة وشعبها وتشكيلاتها شبه العسكرية فى كل أنحاء مصر ، وباتت تمثل مشكلة للنظام السياسى آنذاك وكذا الأحزاب السياسية التى فشلت فى تقديم الحلول المقنعة للمشكلات التى يعانيها المجتمع .

على الجانب الآخر، وبما أننا معنيون بإظهار موقف الإخوان من القضية الفلسطينية، ينبغى إلقاء الضوء باختصار على التطورات التى مرت بها القضية حتى ظهور دور الإخوان فيها والحديث عن القضية الفلسطينية يرتبط بالحديث عن اليهود ونشأة الحركة الصهيونية فقد "صاحبت نشوب الثورة الفرنسية فكرة

انتشرت بين اليهود تعرف باسم حركة هسكالا Haskalah تدعو إلى اندماج اليهود فى المحيطات التى يعيشون فيها بعد أن عمت مبادئ الثورة فى الحرية والإخاء والمساواة شاملة اليهود ولكن سرعان ما اتضح أن الأكثرية الساحقة من اليهود عجزت عن الانصهار فى المجتمعات التى تقيم فيها أو رفضت ذلك ، وعندئذ بدأت بذور الحركة الصهيونية التى تنادى بأن عيش اليهود فى مجتمعات غير يهودية هو أمر متعذر ومستحيل ومن ثم فإن على اليهود أن يسعوا لإقامة مجتمع خاص بهم ودولة خاصة بهم [٥].

وفى مطلع ستينات القرن التاسع عشر أخذ بعض المفكرين اليهود فى الدعوة إلى العمل من أجل " العودة " إلى فلسطين واستعمارها . ولكن الصهيونية ظلت مع ذلك فكرة معزولة عن جماهير اليهود حتى عام سنة ١٨٨١ عندما اضطرت أعداد ضخمة منهم إلى النزوح عن روسيا على أثر المجازر التى حدثت ضدهم فى أعقاب اغتيال القيصر الروسى ألكسندر الثانى فانهارت بذلك حركة هسكالا انهياراً تاماً وحلت محلها حركة هوفيفى صهيون " حب صهيون " التى بدأت بالدعوة لإحياء اللغة العبرية لتصبح لغة اليهود عوضاً عن اليديشيه لغة يهود وسط أوروبا وكانت مزيجا من اللغتين الألمانية والعبرية[٦].

وتبع ذلك ما يعرف بحركة " البيلو " التى عملت على تهجير اليهود إلى فلسطين بقصد الاستيطان وتمكنت فى عام ١٨٨٢ من إيصال ٢٠ مستعمراً إلى فلسطين شكلوا طليعة الهجرة الصهيونية الأولى وحولوا عدة قرى عربية صغيرة نائية إلى مستعمرات صهيونية مثل عيون قارة التى سموها ريشون لزيون وملبس التى سموها بتاح تكفا وزمارين التى سموها زخرون يعقوب . ولكن هؤلاء " الرواد " الأول ـ كما يسميهم اليهود فشلوا فشلاً زريعاً فى الزراعة ولولا أموال المالى اليهودى الكبير البارون أدموند دى روتشيلد التى كانت تتدفق عليهم لماتوا جوعاً أو مرضاً "[٧] .

على أية حال بقيت الحركة الصهيونية تفتقر إلى التنظيم والتخطيط إلى أن تمكن تيودور هرتزل من عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل فى سويسرا فى أغسطس ١٨٩٧ ، وقد حضر المؤتمر المذكور ٢٠٤ مندوبا يمثلون جمعيات صهيونية متناثرة ، وأسفر عن إنشاء أداة تنظيمية لتحقيق أهداف

الصهيونية أطلق عليها اسم المنظمة الصهيونية التى أعلنت أن أهدافها العمل على استعمار فلسطين بواسطة العمال الزراعيين والصناعيين وفق أسس مناسبة ، وتقوية الشعور والوعى القومى اليهودى واتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق أغراض الصهيونية ، وهو ما يوضح لنا أن الصهيونية حركة عنصرية استعمارية تهدف إلى اقتلاع يهود العالم من مجتمعاتهم التى يقيمون فيها من مئات السنين وإحلالهم محل كل سكان فلسطين الذين يقيمون فيها منذ آلاف السنين ، وذلك برعاية الدول الاستعمارية التى كانت حينذاك تفرض " القانون الدولى العام " وتستطيع بالتالى أن تنتزع من الحكومة العثمانية " الموافقة الحكومية الضرورية لتحقيق أغراض الصهيونية " من جانب آخر " كان هرتزل يعارض بشدة أية محاولة للتسلل التدريجى إلى فلسطين إذ أن خطته كانت تقضى بالحصول على ميثاق من السلطان العثمانى عبد الحميد يمنح بموجبه الحق فى إقامة مستوطن يهودى فى فلسطين يتمتع بحكم ذاتى ، ولكن جهوده لدى السلطان باءت جميعها بالفشل على الرغم من تأييد بريطانيا والدول الاستعمارية له . وعندئذ بدأت جهود زعماء الصهيونية تتخذ أشكالاً أخرى ، من ذلك أنه تم فى المؤتمر الصهيونى الخامس سنة ١٩٠١ إنشاء ما يعرف بالصندوق القومى اليهودى keren kayemeth لشراء الأراضى وتسجيلها كملكية أبدية للشعب اليهودى . ثم قام الصهيونيون فى أعقاب صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ بإنشاء الصندوق التأسيسى keren Hayesod لتمويل عمليات الهجرة اليهودية تلك التبرعات التى كانت أقرب إلى الغرائب منها إلى أى شيء آخر" .

وفى أعقاب ذلك تمكن هرتزل من مقابلة وزير المستعمرات البريطانى جوزيف تشمبرلين . والمعروف بمؤازرته للحركة الصهيونية دون تحفظ . وفى هذه المقابلة أبدى تشمبرلين موافقته على مشروع هرتزل لاستعمار قبرص وسيناء فى ظل العلم البريطانى ولكن الصهيونيين انقسموا على أنفسهم حول هذا المشروع مما أدى فى نهاية الأمر إلى صرف النظر عنه والعودة إلى فكرة استعمار فلسطين .

وخلال الفترة من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٠٧ بدأ ما يسمى الهجرة الثانية

والتى كان من أبرز قادتها دافيد بن جوريون واسحق بن زافى . وفى غضون ذلك ارتفع عدد اليهود المقيمين فى فلسطين من ٥٠٠٠٠ فى عام ١٨٩٧ إلى ٨٥٠٠٠ فى عام ١٩١٤ على الرغم من معارضة السكان العرب لهذه الهجرة بكل ما توفر لديهم من أسباب المعارضة التى ما كانت لتجدى فى وجه تغاضى السلطات التركية عن هذه الهجرة بصرف النظر عما إذا كان هذا التغاضى نتيجة سياسة تركية مقصودة أو نتيجة ضغط من الحكومة البريطانية وغيرها من الحكومات الاستعمارية"[٨] .

غير أن الشيء اللافت للنظر أن الصدامات المسلحة بين اليهود والفلسطينيين بدأت مبكراً ففى سنة ١٨٨٦ هاجم الفلاحون المطرودون من "الحضيرة " و " ملبس " التى أُجلوا عنها رغم إرادتهم ودفعت الاصطدامات الحكومات العثمانية سنة ١٨٨٧ إلى فرض قيود على هجرة المستوطنين الصهيونيين الذين كانوا يدخلون البلاد كسياح ثم يبقون فيها طبقا للمخطط الصهيونى . وفى سنة ١٨٩١ قام وجهاء القدس بتقديم عريضة للصدر الأعظم فى تركيا طالبوا فيها بمنع هجرة اليهود الروس إلى فلسطين وتحريم امتلاكهم للأراضى فيها . ويبدو أنه كان لمشاعر الفلسطينيين العرب أثرها فى مواقف السلطان عبد الحميد من محاولات هرتزل لإغرائه ببيع فلسطين لليهود . فقد رفض السلطان هذا العرض على الرغم من حاجة الدولة العثمانية الماسة حينذاك للدعم المالى .

واستمرت المقاومة الفلسطينية بصور مختلفة بعد ذلك إما فى شكل مذكرات تعرض المسألة الفلسطينية وتملك اليهود للأراضى فى ظل غياب دور الدولة العثمانية ، أو فى شكل مؤتمرات للتنبيه بالأخطار التى تحيط بأرض فلسطين ، أو فى شكل مظاهرات ، أو مقالات فى الصحف وثم كانت المفاجأة خلال الحرب العالمية الأولى ، عندما صدر وعد بلفور فى نوفمبر سنة ١٩١٧ ، والذى يعتبر نقطة تحول فى مسار القضية الفلسطينية من خلال التعاون الوثيق بين الصهيونية وإنجلترا بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، أعقب ذلك ، بعد انتهاء الحرب إعلان الانتداب البريطانى على فلسطين سنة ١٩٢٠ هو ما كان نقطة تحول فى الميل نحو اليهود على حساب العرب وهو ما أضر بالقضية

الفلسطينية ضرراً بليغاً .

استمرت بعد ذلك مظاهر التمرد فى شكل مؤتمرات لنصرة الفلسطينيين ، أو مظاهرات مثل انتفاضة القدس سنة ١٩٢٠ وفى نفس العام كانت ثورتا حيفا ويافا والتى وضح فيهما الانحياز السافر من قبل بريطانيا لليهود ضد عرب فلسطين .

ومع استمرار الهجرة اليهودية تحت سمع وبصر سلطات الانتداب البريطانى، لم يكن لتسير الأمور بهدوء ، فجاءت ثورة البراق فى أغسطس سنة ١٩٢٩ ، أعقبها انتفاضة أكتوبر سنة ١٩٣٣ ثم ثورة عز الدين القسام سنة ١٩٣٥ والتى انتهت باستشهاده لتتلوها سلسلة من الثورات الفلسطينية بين عامى ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ [٩] ليتواصل جهاد شعب فلسطين حتى مع دخول أطراف دولية أخرى فى الموقف لحساب اليهود على حساب الشعب الفلسطينى والمتمثل فى الولايات المتحدة الأمريكية .

والموقف العربى من القضية لم يكن على مستوى ما يكتنف القضية من أخطار ، السبب ما كانت تعانيه المنطقة من وقوع معظمها تحت السيطرة الاستعمارية ومن ثم انصبت كل الجهود بعيداً عن الحكومات وهو ما لم يأت بنتيجة مرجوة لأن استشعار الخطر كان يستدعى تضافر حكومات أكثر من تضافر شعوب أو جهود أهلية ، خاصة من قبل الدول المشاركة لفلسطين فى حدودها مثل مصر وبلاد الشام .

وإذا كان ما سبق هو استعراض شديد الاختصار لمسار القضية الفلسطينية حتى سنة ١٩٣٩ فالهدف من هذا الاستعراض هو الوصول إلى الحقيقة السابقة وهى أن الجهود الأهلية طغت كثيراً على دور الحكومات وهو ما مكن جماعة مثل الإخوان المسلمين أن تلعب دوراً مهماً فى سبيل قضية فلسطين .

وبداية يجب أن نشير إلى أن اهتمام الإخوان المسلمين بالقضية الفلسطينية جاء من منطلق أيديولوجية الجماعة والتى صاغها حسن البنا وهى " أن كل أرض يقال فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله هى جزء من وطننا له حرمته وقداسته والإخلاص له والجهاد فى سبيل خيره " .

والحديث عن موقف الإخوان من القضية الفلسطينية يجب تناوله على

محورين:

الأول : خاص برأى الجماعة فى يهود مصر ونشاطاتهم التى يمارسونها وتأثير تطورات القضية الفلسطينية على هذا الرأى .

الثانى : الموقف العملى للإخوان فى سبيل القضية .

إذا بدأنا بالمحور الأول نجد أن تطورات القضية الفلسطينية تركت تأثيراً واضحاً على رأى الإخوان فى اليهود ، ففى تناولهم للقضية الاقتصادية فى مصر ، اعتبروا أن النشاط الاقتصادى الذى يمارسه اليهود فى مصر هو أحد المشكلات التى يعانى منها الاقتصاد المصرى فهم يحتكرون تجارة الذهب ولا يزاحمهم فيها إلا القليل من المسلمين ، وبيدهم أكبر الفنادق تدر عليهم الأموال مدراراً ، وهى أموال من جيوب المسلمين الذين لا يعرفون كيف ينفقون أموالهم ، ويضربون بسهم وافر فى شراء الأراضى والعقارات وإعادة بيعها بأثمان عالية ، لتضيف إلى رصيدهم المالى رصيداً آخر جديد .

وهم يسيطرون أيضا على أسهم معظم البنوك والمصارف فى مصر ، وتجارة الورق هى الأخرى لم تسلم منهم ، بل أن تجارة الأقمشة وسيطرتهم عليها ، أفلست التجار المصريين. وها هى أعمال الأوراق المالية والصيرفة كلها يهودية ، ودور الملاهى والدعارة وصناعة السينما وبنوك الرهونات لم تسلم من يد اليهود الممتدة يميناً ويساراً فى كل اتجاه .

وإمعاناً فى سياسة التصدى لنشاط اليهود ، كان الإخوان ينشرون فى صحفهم بعضا من الأخبار عن نشاط اليهود مقرونة بإيضاح خطره وكيفية مقاومته ، فعندما وصل إلى علم الإخوان أن أحد التجار اليهود ذهب إلى واحة سيوة واشترى جميع منتجاتها من التمر وزيت الزيتون بسعر مرتفع عن سعر السوق ، وأن هذا التاجر اتفق مع السكان على شراء محصول العام القادم ، كان تحذير الإخوان من هذا التاجر ، بأنه بمرور الوقت ستؤول أملاك أهل هذه المنطقة إلى هذا اليهودى ، وأن هذه الواحة المصرية ستصبح مستعمرة صهيونية على غرار الدولة اليهودية فى فلسطين ، وناشد الإخوان الحكومة أن تقف موقف المتشدد وأنه إذا لم يتم ذلك التعاون فإن الإخوان هم الذين سيقفون ضد هذا الخطر .

أما شركات اليهود فى مصر فلم تنج هى الأخرى من هجوم الإخوان ، فقد وصفوها بأنها ستاراً يتستر به اليهود فى تنفيذ خططهم الهدامة التى أحلت الفقر والأزمات فى بلاد النيل.

وقد حمَّل الإخوان اليهود مسئولية الكثير من المشاكل الاقتصادية التى حدثت فى مصر فهم الذين أقرضوا سعيد باشا بالربا ، وأوقعوا إسماعيل فى مصيدة الديون ، وكانوا وراء شراء نصيب مصر من أسهم قناة السويس بواسطة بنك روتشيلد اليهودى فى إنجلترا .

وبناء على ما سبق حدد الإخوان موقفهم صراحة من اليهود بأنه " يكفينا ما أصابنا من هؤلاء اليهود فى كل زمان ومكان ، فقد خضدوا شوكتنا ، وأوهنوا قوتنا ، وألبوا علينا عداتنا، وسلبوا أموالنا بشتى الحيل والأساليب ، وأرهقونا بما أوتوا من عدوان وبهتان ، فعلينا أن نلم شعثنا ونرأب صدعنا ، ونخرج اليهود من محيط علمنا ، فقد استغلوا سماحتنا وعطفنا وتجاوزنا عن السيئات فكبدونا الخسائر وقلبوا لنا ظهر المجن فى أى فرصة سنحت لهم .. وعداوة المشركين تبع فى شدتها لعداوة اليهود " . بل تعدى الأمر إلى اتهام يهود مصر بأنهم طابور خامس "(١٠) .

أما المحور الثانى والخاص بالموقف العملى ، فمن منطلق رؤية الإخوان – والتى أشرنا إليها من قبل – بأن أرض فلسطين هى أرض إسلامية لها قداستها مثل غيرها من أرض الإسلام ويجب الدفاع عنها ، جاء موقفهم العملى فتشير بعض مصادر الإخوان أنه " حين وضحت نيات السياسة البريطانية فى فلسطين أخذ الإخوان يعقدون المؤتمرات تباعاً ويبينون للشعب والحكومات الخطر الذى يهدد كيانهم ومستقبلهم ، حتى نجحوا فى إشراك العالم الإسلامى كله فى هذه القضية ، وباتت قضية المسلمين والعرب لا قضية أهل فلسطين وحدهم ، وحين قامت القلاقل فى فلسطين أخذوا يمدون المجاهدين بما وقع فى أيديهم من مال وسلاح حتى كانت ثورة ١٩٣٦ حين نجح عدد من شبابهم فى التسلل إليها والاشتراك مع الثوار فى جهادهم ، وخاصة فى مناطق الشمال حيث عملوا مع المجاهد العربى الكبير "الشيخ عز الدين القسام " ، وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية أخذ الإخوان يعملون للقضية عملاً إيجابيا ، فأرسلوا وفوداً من دعاتهم

وشبابهم يؤلبون العرب ويستحثونهم للكفاح ، ويتولى نفر منهم تدريب الشباب الفلسطينى تدريباً سرياً ، ولقد نجحوا فى ذلك إلى حد بعيد حتى أصبحت شعبهم ودورهم هى مراكز القيادة وساحات التدريب "[١١] .

" وحين تشكلت المنظمات العسكرية العربية وأخذت تمارس تدريبها ، قام خلاف بين قواد " النجادة " و " الفتوة " وفطن الإخوان للخطر الكبير الذى ينطوى عليه هذا الخلاف ، فقاموا بمحاولات كثيرة للتوفيق بين وجهات النظر المتعارضة ، انتهت باختيار الصاغ محمود لبيب وكيل الإخوان المسلمين حينئذ للشئون العسكرية منظماً لهذه التشكيلات فقبل هذا العمل الجليل وسافر إلى فلسطين ، وأخذ يباشر تنفيذ برنامجه الحافل الذى أعده لتدريبها وتنظيمها ، ولكن لم تمض إلا فترة وجيزة حتى فطنت حكومة الانتداب إلى هذه المحاولة ، وفهمت أن الدعوة الإسلامية تريد أن تزاحم لتحتل مكان القيادة فى النضال المنتظر ، ومعنى ذلك بوضوح أن تنقلب خطط الإنجليز رأساً على عقب وتفشل سياستهم فى فلسطين ، فقاموا بمطاردة دعاة الإخوان وشبابهم وأمر الصاغ محمود لبيب بمغادرة البلاد ."[١٢] .

ويشير صاحب كتاب " الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين " أنه حاول بنفسه دخول فلسطين فى نوفمبر ١٩٤٧ حيث أرغم على العودة إلى مصر أكثر من مرة إلى أن نجح فى الدخول واضطر إلى قطع مسافات طويلة سيراً على الأقدام وظل يتنقل بحذر حتى استقر به المقام فى يافا وكانت الحركات العسكرية قد بدأت تتسع وتزيد حدتها ، وأنه بعد أيام وهو يقود دورية من الدوريات الاستكشافية لاحقتهم دورية انجليزية وأرغمتهم على التسليم لأنهم يملكون نفس قوة الإنجليز وبدأت عملية استجوابهم .

من جانب آخر يشير نفس المصدر أن ما تم مع الأخوان فى فلسطين لم يصرفهم عن مواصلة الجهاد إذ أخذت شعبهم ومراكزهم فى فلسطين تنظم حركة المقاومة على قدر ما تسمح به مواردها المحدودة ، وأخذ شباب الإخوان فى مصر يتسللون فرادى للاشتراك مع العرب فى حرب العصابات التى قامت على أشدها فى ذلك الحين[١٣] .

ومع تأزم الموقف أكثر فى فلسطين طلب الإخوان من النقراشى السماح

بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط فى الجزء الشمالى من صحراء النقب ، فرفضت الحكومة الطلب ، فاضطر الإخوان إلى طلب السماح لهم بالقيام فى رحلة علمية إلى سيناء فوافقت حكومة النقراشى بعد إلحاح شديد وحضرت تلك المجموعة إلى سيناء وتسللت منها إلى فلسطين سراً حيث لحقت بها دفعات أخرى تسللت بطرق مختلفة .

وبدخول هذا الفوج فى فبراير سنة ١٩٤٧ بدأ القتال الفعلى فى صحراء النقب ، فأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية رغم قلة عدده وضعف أسلحته وتجمع حوله المجاهدون من أهل فلسطين وبدأت حرب عصابات منظمة وبعد شهرين طلبت الحكومة من المركز العام للإخوان المسلمين فى مصر سحب قواته من النقب ، ولما رفض الإخوان قطعت الإمدادات والتموين عن الموجودين فى فلسطين ووضعت رقابة شديدة على الحدود لتضمن عدم وصول الإمدادات حتى تضطرهم للعودة إلى مصر ، وظلوا يعملون فى الداخل حتى دخل الجيش المصرى الحرب بعد إعلان قيام إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ (١٤) .

ويروى كامل الشريف فى كتابه المذكور أنه رغم التضييق الذى حدث فقد نجح البعض من الإخوان من الوصول إلى فلسطين سيراً على الأقدام وكان معظمهم طلاب المدارس الثانوية وكيف أنهم غافلوا رجال البوليس فركبوا عربات البضاعة فى قطار السكة الحديد ، ثم أكملوا السير فى صحراء سيناء وساعدهم فى الوصول بعض بدو سيناء (١٥) .

ومن المعارك التى دخلها الإخوان معركة " كفار ديروم " فى إبريل سنة ١٩٤٨ ، ثم التعاون مع أحمد عبد العزيز فى الدفاع عن منطقة " صور باهر " الحصينة فى جنوب القدس إضافة إلى استكمال بعض هذه القوات تدريبها فى سوريا إضافة إلى تعاونهم مع إخوان الأردن وقد انتهت معركة كفار ديروم بإخلاء اليهود للمستعمرة فى منتصف يوليو سنة ١٩٤٨(١٦).

وكان الدرس المستفاد من معركة كفار ديروم هو أن الأسلوب الأمثل فى التعامل مع اليهود بسبب عدم تكافؤ القوى هو شن حرب العصابات واستدراجهم خارج مستعمراتهم للتعامل معهم فى الأرض المكشوفة(١٧).

وبهذا الأسلوب نجح الإخوان فى الحصول على إمدادات وغنائم كثيرة مثلما حدث فى مستعمرتى " بيرى وأتكوما " وغيرها من المستعمرات اليهودية[١٨] .

وأمام قلة الأعداد البشرية للإخوان فى ميدان القتال بدأوا فى البحث عن حلول كان منها فتح باب التطوع لشباب القبائل بعد أن بث الإخوان الثقة فيهم وإبعاد شبه الخيانة عنهم والتى ألصقت بهم وأشيع عنهم أنهم يتعاملون مع اليهود ضد العرب المجاهدين ، وبناءً عليه وفد عليهم العشرات الذين قام الإخوان بتدريبهم وصاروا ذخيرة بشرية للإخوان فى الحرب .

وكانت الخطوة السابقة رداً على ما كان يقوم به اليهود من استخدام هؤلاء البدو لتحقيق أهدافهم واستخدامهم كأدوات للتجسس مقابل بعض الإغراءات المادية ... [١٩].

ويشير الإخوان إلى مسألة خطيرة هى أنه أثناء الحرب لم يكن هناك نوع جاد من التعاون مع الجيش المصرى وكانت وجهة نظر الإخوان أن خطتهم فى التعامل مع بدو النقب والاستفادة منهم فى الحرب إلى جانب العمل على تثبيتهم واستقرارهم فى النقب بدلاً من تركهم وحدهم ، أما الجيش فكانت المسألة لا تعنيه وعلى حد قول أحد الإخوان " لقد وضح لى الآن أننا والجيش كنا ننتمى إلى عالمين منفصلين أحدهما يقرأ كتب الحرب ويطبقها حرفياً والآخر يفهم الحرب ببساطة على أنها البحث عن العدو لقتله حيث يكون ، أحدهما يعتبر أرض فلسطين هى ذلك الشريط الساحلى الضيق الذى تقف على جانبيه قواته دون حركة والآخر يعرفها ارضاً واسعة تقع بين البحر المتوسط وخليج العقبة وكلها ميدان حرب مع العدد المعتدى ، أحدهما ينتظر اليهود أن يهاجموه للدفاع عن نفسه قدر الاستطاعة والآخر يؤمن بالهجوم المستمر وبدون توقف ، وهو خلاف قديم ظهر فى حروب كثيرة بين العقلية المتزمتة التى تريد أن تخضع الظروف للنظريات الجامدة ، والعقلية الحرة التى تريد أن تبتكر من النظريات ما يتلائم مع الظروف الخاصة المتجددة . وكان طبيعياً أن تنتهى المحاورة بانتصار صاحب الرتبة الأكبر والنفوذ الأقوى وكانت النتيجة أننى لم أتمكن من تنفيذ خطتى إلا فى حدود إمكانياتنا المتواضعة وكم حز فى نفسى وملأها ألماً أنها إمكانيات لم تسمح لنا بحماية أصدقائنا البدو طويلاً وتركناهم بعد أشهر

الزمالة الشريفة يواجهون تصفية الحساب مع اليهود وحدهم فيقتلون منهم كيف يشاءون ويشردون الباقين مع نسائهم وأطفالهم .. "[٢٠] .

على أية حال فمع استمرار الحرب واستمرار الحماس وتأجج المشاعر داخل مصر فى التطوع إلى جوار الجيش ازدادت حركة التطوع من قبل الإخوان الذين كانت لهم أدواتهم وتشكيلاتهم شبه العسكرية ففتح المركز العام بالقاهرة أبوابه للتطوع ، وبدأت اتصالات كثيرة انتهت إلى تكوين فرق من المتطوعين يقودها ضباط من الجيش ، وتتولى الجامعة العربية تدريبها والإنفاق عليها . وبدأت حركة التطوع عن طريق المركز العام وكان يشرف على تنظيمها الصاغ محمود لبيب وكيل الإخوان المسلمين وقائد وحداتهم العسكرية ، ونجح بمعاونة بعض الشخصيات المجاهدة وعلى رأسها صالح حرب واللواء عبد الواحد سبل فى إقامة معسكر للتدريب فى الهايكستب تتولى الجامعة العربية إمداده وتنظيمه ، ويشرف على برنامج التدريب فيه البكباشى حسين مصطفى من رجال الجيش العامل .

واستطاعت هذه المجموعات المدربة أن تصل فلسطين وتشارك فى الحرب هناك..[٢١].

أيضاً استطاعت مجاميع الإخوان من الاشتباك مع القوات اليهودية فى مستعمرة "رامات راحيل " الواقعة فى الطريق الرئيسى الذى يصل بيت لحم بالقدس ، غير أن إعلان الهدنة فى يونية سنة ١٩٤٨ لم يعط الفرصة للإخوان ومن معهم من الجيش لتحقيق هدفهم بالسيطرة على هذه المستعمرة ذات الموقع الخطير ، هذا فضلاً عن دورهم أيضاً فى معارك جبل المكبر إلى الجنوب الشرقى من القدس وهى المعارك التى جرت فى أثنائها مفاوضات انتهت باستشهاد أحمد عبد العزيز وهو فى طريقه إلى المجدل لتوصيل نتائج المفاوضات حول جبل المكبر إلى قيادته هناك .

أيضاً من المعارك التى شارك فيها الإخوان مع الجيش ، المعارك التى دارت حول منطقة " تبة اليمن " فى أكتوبر سنة ١٩٤٩ وهى من المناطق الإستراتيجية حول بيت لحم ، ونظراً لكثرة من استشهد حولها من الإخوان سميت " تبة الإخوان المسلمين " [٢٢] .

من ناحية ثانية كانت هناك أعداداً من الإخوان محاصرين فى الفالوجا مع المحاصرين من الجيش المصرى وبذل الإخوان جهوداً كبيرة فى التسلل عبر دروب الصحراء وبمعاونة المجاهدين العرب لتوصيل الإمدادات للمحاصرين هناك وهو ما عرضهم لكثير من المآزق والصدامات مع الدوريات اليهودية التى كانت تفرض حصاراً محكماً على الفالوجا والطرق المؤدية إليها [٢٣] .

ووسط المشكلات التى كان يعانيها الجيش المصرى وكذا المتطوعين من الإخوان فى ميادين القتال جاء قرار حكومة النقراشى بحل الجماعة فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ أعقبها اغتيال رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى فى نفس الشهر ولم تمر سوى أسابيع قليلة وتحديداً فى ١١ فبراير سنة ١٩٤٩ حتى اغتيل حسن البنا لتمر الجماعة بمرحلة من الترنح الذى اقترب من الانهيار وهو ما أثر بالسلب على التواجد العسكرى للإخوان فى فلسطين [٢٤].

وقدر الاستطاعة حاول الإخوان فى فلسطين ان يستمر دورهم رغم ما يحدث فى القاهرة فقد شاركوا فى معارك " بيرون اسحق " ، التبة ٨٦ و "دير سنيد" أو "ياد مردخاى" والعسلوج والعوجة إضافة إلى المعارك الأخيرة فى شبه جزيرة سيناء ، منفردة أحيانا ومع الجيش المصرى حيناً آخر .. وهو ما كلف الإخوان العشرات من الجرحى والشهداء والأسرى طيلة فترات الحرب .. [٢٥] .

على الجانب الآخر تسبب اشتراك الإخوان فى حرب فلسطين ، فى إثارة القوى الأخرى العاملة على الساحة فبحلول سنة ١٩٤٨ لم تتوقف الحرب الكلامية بين حزب الوفد والجماعة حيث كان الطرفان على طرفى نقيض فى توجهاته وإيديولوجيته ، فقد اتهم الوفد الإخوان المسلمين بأنهم يحصلون على الأموال تحت ستار القضية الفلسطينية ، وأن هذه الأموال يقوم البعض باختلاسها . بل وشكك الوفد فى جدية الإخوان فى تجهيز الكتائب لمواجهة الموقف فى فلسطين ، وهو ما ردت عليه صحف الإخوان فشككت فى وطنية النحاس واتهمت الوفد بالعمالة للإنجليز ، وكيف أن الوفد استطول طريق الجهاد وأعطى الدنية فى حق الوطن فانتهى جهاده فى سبيل الحرية إلى معاهدة الشرف والاستقلال التى سجلت الاحتلال وأعطته الصفة الشرعية[٢٦] .

وعلى نفس المستوى كان الخلاف بين الإخوان ومصر الفتاة والذى ازداد

اشتعالاً مع حلول سنة ١٩٤٨ وكانت القضية الفلسطينية السبب أيضاً ، فاتهمت صحيفة " مصر الفتاة " حسن البنا والجماعة بأن ما يعدونه من كتائب المساعدة الفلسطينية ليس إلا شعوذة ودجلاً وضحكاً على عقول المصريين ، وعلى حسن البنا أن يكون عملياً كمصر الفتاة التى أعدت كتائبها التى وصلت إلى ميادين القتال وتحارب فى صفوف المجاهدين .

أما الإخوان فردوا عليهم ، فاتهموا متطوعى مصر الفتاة بالهروب من معسكر هايكستب بمهماتهم وأن هيئة وادى النيل العليا تفكر فى تعيين جنود الإخوان حراساً فضلاً عن هروب جنود أحمد حسين من الحراسات فى جبهات القتال ، وبيعهم سلاحهم ، بل أن أحمد حسين ذاته قد استقال من رئاسة لجنة الدعاية بهيئة وادى النيل العليا لإنقاذ فلسطين بسبب ما أثير بأنه يتقاضى شهريا ستمائة جنيه من الجامعة العربية ثمناً لإعداده قوات لصالح القضية الفلسطينية[٢٧] .

هكذا جاءت مشاركة الإخوان فى حرب فلسطين لتلقى المزيد من الزيت على النار على العلاقة المتأزمة بين الإخوان والقوى الأخرى فى مصر .

إذا ما عدنا إلى أرض فلسطين مرة أخرى يلاحظ المتتبع للأحداث وحسب رواية الإخوان أنفسهم أنهم لم يكونوا متحمسين كثيراً للتعاون مع الجيش أثناء الحرب رغم أن ما عرضناه يشير إلى تعاون واضح وليس كاملاً مع الجيش .

وكانت وجهة نظر الإخوان كما رواها بعض المشاركين فى الحرب هى " لقد كان رفضنا الاندماج الكلى فى الجيش المصرى موضوعاً يستحق التسجيل والتوضيح ذلك أن بعض العناصر السياسية فى القاهرة اتخذته دليلاً على أن الإخوان كانوا يرمون إلى بناء قوة عسكرية مستقلة تعمل على الإطاحة بنظام الحكم المصرى ولكن دوافعنا كانت فى الواقع لا علاقة لها بالسياسة وإنما تمليها اجتهادات خاصة تتعلق بالمهمة التى كنا نعمل بها وهى قهر الصهيونية فى فلسطين فما هى هذه الدوافع والأسباب ؟

كانت تربية شباب الإخوان المسلمين تقوم على أساس المساواة والتكافل والحرية ، ولم تكن هناك أية ميزات بين المسئولين على اختلاف رتبهم وبين الأفراد إلا ميزة السمع والطاعة فى العمل والواجبات وكانت العلاقة بين

الضباط والجنود علاقة أخوة ليس فيها شيء من الرسميات ، ولم نكن نسمع أن هناك تفاوتاً فى اللباس أو المأكل أو المسكن بين أعلى رتبة وأصغر رتبة ، وكانت هذه الأوضاع يمليها المفهوم الإسلامى للجندية والجهاد ، كما تمليها ظروف هؤلاء الأفراد وثقافتهم وأوضاعهم الاجتماعية ، فمثلاً قد تجد جندياً عادياً يحمل شهادة جامعية عالية بينما قائد فصيلته أو سريته عامل بسيط أو فلاح ذو ثقافة متوسطة ، ولكنه اجتاز تدريباً خاصاً أو قضى فى الميدان مدة طويلة أظهر خلالها شجاعة فائقة أو دراية واسعة فى القيادة حتى يمكن القول إن قائد الفصيلة أو الجماعة كان أشجع أفرادها على الإطلاق وأكثرهم خبرة فى القتال ومكانه دائماً هو المقدمة عند الاشتباك مع العدو .

أعتقد أن هذه التربية الحرة القائمة على الكرامة والمساواة كانت من بين الأسباب التى تدفعهم لتحدى الموت والصمود عند اللقاء ، على أن هذه الأوضاع التى تحكم علاقات الإخوان المسلمين كانت عكس الأوضاع فى الجيش المصرى تماماً حيث تسيطر العقلية العسكرية الصارمة وحيث يقوم الفرق بين الجندى وقائده مقام الحب والاحترام وحيث تقوم فجوة بين الرتب تشمل المأكل والملبس والمسكن . ومن هنا وجدنا أن إذابة الإخوان فى الجيش ستعنى هدم النظام الذى كان يقوم عليه كياننا الجهادى ، وبالتالى محو الملامح والخصال التى تنتج عنها خصال الفدائية والتضحية والتسابق على الشهادة ، فهل يمكن أن أُلام لإصرارى على ضمان الحرية الداخلية لوحدات الإخوان المسلمين فى نطاق الإطار العام للجيش المصرى وتحت قيادته الموحدة ؟

والواقع أن قيادة الجيش أقرت هذا المبدأ بعد تردد شديد ومشاجرات متعددة بينى وبين ضباط اتصال الجيش البكباشى زكريا العادلى إمام وهى مشاجرات كانت كثيراً ما تنقلنا إلى القائد العام للتأنيب أو المصالحة .

كان دخول الجيش المصرى إلى فلسطين نقطة تحول بالنسبة لوحدات الإخوان المسلمين ، وأصبح علينا منذ الآن أن نحاول ملائمة نشاطنا مع خطط الجيش وسياسته العامة كما أصبح علينا أن نشترك فى عملياته الهجومية والدفاعية وكان يطلب منا على الأغلب أن نقوم بالأعمال التعرضية الخطرة ، وأحيانا لتحقيق الأهداف التى تعجز عنها الوحدات النظامية" [٢٨] .

وهى مقولة أكدت الحالة فى ميدان القتال ، كما أكدت أيضاً المدى الذى وصل إليه الإخوان من الناحية العسكرية وهو ما أوصلهم إلى نتيجة مؤداها أنهم أقوى من جيش !!

على أية حال فقد جاء حل الجماعة وكذا اغتيال حسن البنا لينهى دور الإخوان فى الحرب فسلموا سلاحهم وتم تجميعهم فى ثكنات وأُعيدوا إلى القاهرة لتتلقفهم معتقلات حكومة إبراهيم عبد الهادى التى واصلت إجراءاتها ضد الجماعة .

وختاماً يجب التوقف أمام عدة حقائق :

أولاً : أن مجمل النشاط فى سبيل لقضية الفلسطينية جاءت كلها من خلال النشاطات المدنية وطغت تلك النشاطات على الدور الحكومى .

ثانيهاً : بما أن القضية الفلسطينية كانت تمس مصر مساساً مباشراً بسبب التجاور الجغرافى بين مصر وفلسطين ، فإن كل النشاطات أتت من هذه الرؤية .

ثالثها : إن الإخوان المسلمين نظروا إلى القضية الفلسطينية على أنها قضية وطن إسلامى يجب الدفاع عنه وهو ما يفسر لنا أنهم كانوا أكثر القوى غير الحكومية التى كان لها دور فاعل فى حرب فلسطين .

رابعها : إن كم ما قدمه الإخوان فى تلك الحرب من جرحى وشهداء وأسرى ، كان محاولة للقيام بدور منفرد لإثبات الوجود وأنهم يمتلكون قوة عسكرية قادرة على مواجهة النظام السياسى وهو ما لم يقبله الأخير فجاء الحل واتبع باغتيال مرشد الجماعة .

الهوامش

(١) حمادة محمود إسماعيل ، جماعة الإخوان المسلمين ودورها فى تاريخ مصر ١٩٢٨ – ١٩٤٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٨٢ . حسن البنا ، مذكرات الدعوة والداعية ، دار الشهاب ، القاهرة ص ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) حمادة إسماعيل ، المرجع المذكور ص ص ٧ – ٣٠ .

(٣) أول المحرم ١٣٥٨ / فبراير ١٩٣٩ مقال " بعد المؤتمر " حسن البنا .

(٤) حمادة إسماعيل ، المرجع المذكور ص٣٣٤ .

(٥) عبد الوهاب الكيالى ، الموجز فى تاريخ فلسطين الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت يوليو ١٩٧١ ص ١٨ .

(٦) المرجع السابق ص ١٨ .

(٧) المرجع السابق ص ١٨ ، ١٩ .

(٨) المرجع السابق ص ١٩ –٢١ .

(٩) المزيد من التفصيل عن الثورات الفلسطينية انظر : المرجع السابق ص ص ٢٣ – ١٧٧ .

(١٠) حمادة إسماعيل ، المرجع المذكور ص ص ٢١١ – ٢١٣ ، ٣٤٧ .

(١١) كامل الشريف ، الإخوان المسلمين فى حرب فلسطين ، الطبعة الثالثة مكتبة المنار الأردن ١٩٨٤ ، ص ص ٣١ ، ٣٢ .

(١٢) المصدر السابق ص ص ٣٣ ، ٣٤ .

(١٣) المصدر السابق ص ص ٧٨ ، ٣٩ .

(١٤) المصدر السابق ص ٤٠ ، ٤١ .

(١٥) المصدر السابق ص ٤١ .

(١٦) المصدر السابق ص ٤٤ ، ٦٢ .

(١٧) المصدر السابق ص ٦٢ .

(١٨) المصدر السابق ص ٦٨ .

(١٩) المصدر السابق ص ٧٢ .

(٢٠) المصدر السابق ص ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢١) المصدر السابق ص ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٢٢) المصدر السابق ص ص ٩٨ – ١٠٤ .

(٢٣) المصدر السابق ص ص ١٢١– ١٢٢ .

(٢٤) حمادة إسماعيل ، المرجع السابق ص ص ٥١٥ – ٥٣٤ .

(٢٥) كامل الشريف ، المرجع المذكور ص ص ١٤٢ – ١٧١ .

(٢٦) حمادة إسماعيل ، المرجع المذكور ص ٣٠٤ .
(٢٧) المرجع السابق ص ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .
(٢٨) كامل الشريف ، المصدر المذكور ص ص ١١٨ ، ١١٩ .